الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة 08 ماي 1945 قالمة

كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب عربي

الأستاذة: إيمان حراث
المستوى: سنة ثالثة ليسانس
تخصص: دراسات أدبية
الأفواج: (1+2+3)

المحاضرة الثانية:

الرواية المغاربية

تمهيد:

الرواية حامل معرفي يعنى بتفكيك البنى الاجتماعية والسياسية والأنظمة الإيديولوجية ،وراصد دقيق لتحولات الواقع وصيرورته.

وقد عرفت البلدان المغاربية مراحل تحول في تاريخها على مستويات متباينة، بدءا بالحقبة الاستعمارية ثم ما بعد الاستعمارية بكل تداعياتها وتحدياتها.

فإلى أي مدى أثرت هذه التحولات في الرواية المغاربية؟ وما مستويات هذا التأثير؟

أولا: التحول على مستوى البنية المضمونية (مرحلة التأسيس):

مرت البلدان المغاربية بتحولات عميقة على مستوى البنية والنظامين الاجتماعي والسياسي، فقد وقعت تحت القبضة الاستعمارية، وعانت القهر والظلم والتجهيل ومصادرة الحقوق وطمس الهوية، وكان من النتائج الوخيمة لذلك انتشار الأمية بنسب مرتفعة، وبذلك كان من الطبيعي أن يتأخر ظهور الرواية وغيرها من فنون السرد في البلدان المغاربية مقارنة بنظيرتها المشرقية، غير أنها ما فتئت تشهد تطورا على مستوى البنية المضمونية وعلى مستوى اللغة والانخراط في التجريب. فضلا عن المواكبة الإبداعية "لتاريخ وتحولات هذا الفضاء، فهو أدب يجسد ويصدر عن قواسم مشتركة تعتبر ثمرة استلهام الأدباء لنفس السياق السياسي والسوسيوثقافي، مما يعني أن هناك مرجعية واحدة يصدر عنها هؤلاء الكتّاب، بل و" ثمرة استلهامهم لنفس المتخيل ولنفس الذاكرة اللغوية المشتركة الغنية والمتجذرة في المقدس والدنيوي والمدوّن والشفوي منذ قرون.

فبعد الحقبة الاستعمارية وتحقيق الاستقلال انخرطت البلدان المغاربية في بناء الدولة الوطنية، حيث تبنى أغلبها الإيديولوجيا الاشتراكية بوجهيها السياسي والاجتماعي، لهذا أولى الخطاب الروائي أهمية قصوى" للرسالة الاجتماعية، وبشكل خاص لقضايا الثورة والتغيير والالتزام؛ ففي الجزائر وكما هو معلوم كانت أول رواية كتبت باللغة العربية هي "ريح الجنوب" لعبد الحميد بن هدوقة (1971م)، حيث تناولت واحدة من أبرز المسائل التي عاشتها الجزائر في مرحلة السبعينيات وهي تأميم الأراضي وإطلاق مشروع الثورة الزراعية. لذلك تعد أهم رواية تجسد التحولات الاجتماعية والسياسية، من خلال الصراع الاجتماعي بين الإقطاعي المستغل وبقية الفئات الاجتماعية.

ولا تختلف رواية "الزلزال" للطاهر وطار في توجهها الاجتماعي، إذ قاربت الموضوعة ذاتها في سعي من الكاتب لنقد النظام الإقطاعي، بتفكيك البنى الاجتماعية للمجتمع الجزائري. أما رواية "اللاز" فإنها رصدت التحولات السياسية والإيديولوجية والموقف من الثورة.

والأمثلة كثيرة يمكن أن نذكر منها رواية "مالا تذروه الرياح" لمحمد العالي عرعار، ونهاية الأمس وبان الصبح لعبد الحميد بن هدوقة.

أما في تونس فقد انطوت نصوص المرحلة الأولى (التأسيس) على تمجيد النضال الوطني بالانتقال من الاحتلال إلى بناء الدولة الوطنية، مع المزج بين التاريخي والواقعي، حيث تعدّ روايات محمد العروسي المطوي نماذج (ومن الضحايا 1956م)، فضلا عن رصد مشكلات الواقع كالنزوح بين الأرياف والمدن والهجرة وما ينجم عنها من مشاكل مثل (بودودة مات) لمحمد رشاد الحمزاوي و(المنعرج 1964م) لمصطفى الفارسي و(البحر ينشر أمواجه 1975م) لمحمد صالح الجابري . وعلى العموم فقد نزعت الرواية التونسية في هذه المرحلة نحو" تصوير أشكال الصراع الوطني والاجتماعي، وهي التيمة الكبرى التي هيمنت على السرد.

كما انشغلت الرواية المغربية بالقضايا نفسها، من مقاومة الاستعمار إلى إعادة بناء الهوية الوطنية كما نجد ذلك في روايات عبد الكريم غلاب (سبعة أبواب 1965م، دفنا الماضي 1966م) و(جيل الظمأ 1967م) لمحمد عزيز الحبابي. ويذهب الباحث المغربي عبد العالي بو الطيب إلى توصيف بعض خصائص الرواية المغربية وتأثير التحولات السياسية والاجتماعية عليها، ومنها:

- تكريس هيمنة السياسي على الثقافي.
- الاهتمام بالتاريخ المغربي المعاصر.
- الحضور القوي لبعض مظاهر الاجتماعية السلبية.
- مما أدى إلى إعاقة تطور الجوانب الفنية.

وعليه فقد انحصرت موضوعاتها في الاستعمار، الاستقلال، الفقر، المساواة، الديمقراطية، التخلف، الصراع الطبقي. وهي عناصر مشتركة بين الروايات المغاربية.

بينما كان الإنتاج الروائي الليبي قليلا في مرحلة التأسيس سواء على مستوى الكم أو الكيف، إذ بعد محاولة محمد فريد سيالة (اعترافات انسان 1961م) لم تظهر نصوص روائية جديدة إلى غاية منتصف الثمانينيات.

ثانيا: أثر التحولات الاجتماعية والسياسية في رواية الثمانينيات وما بعدها:

مثلت مرحلة الثمانينيات مرحلة التململ الاجتماعي والسياسي، فقد كشفت عن الأزمة الحادة في مفاصل الدولة الوطنية مع سيطرة الشعور بالخيبة والانكسار" فاتجهت الرواية منذئذ نحو تشخيص تمزقات الفرد، واستعادة عالم الطفولة، والانشغال بتأمل الكتابة في ذاتها، في حقبة اتسمت بتنامي الشعور بخيبة الأمل أمام انكسار المشاريع الكبرى للتغيير والثورة"، وكانت ثمرة ذلك التوجه نحو التجريب وتفجير الأشكال التقليدية في الكتابة الروائية، مع عودة الكتّاب إلى الاهتمام بالبحث عن الذات وإعادة بناء الهوية عبر محاورة الأنا (التراث) والآخر (الغرب) وإعادة طرح أسئلة جديدة . مع حضور الوعي بالكتابة وإشكالاتها والاشتغال على اللغة فضلا عن توظيف الذاكرة (التراث الشعبي و العجائبي والخرافي) والمكونات السير ذاتية.

وهذا ما جسدته روايات واسيني الأعرج مثل (نوار اللوز 1983م) و(ما تبقى من سيرة لخضر حمروض 1989م) حيث تناول مظاهر البؤس الاجتماعي والسياسي التي انتهى إليها الإنسان الجزائري.
أو الروايات المغربية على غرار (المرأة والوردة) لمحمد زفزاف و(الفريق) لعبد الله العروي و(أحلام بقرة) لمحمد الهرادي.

وتتجلى المظاهر ذاتها في الرواية التونسية في جملة من الأعمال الروائية تتمثلها (الرحيل إلى الزمن الدامي 1981م) لمصطفى المدايني و(أعمدة الجنون 1985م) لهشام القروي، و(النفير والقيامة 1985م) لفرج الحوار. و(حقول الرماد 1985م) لليبي أحمد الفقيه.

أما في مرحلة التسعينيات فقد طغت تيمات جديدة فرضها الواقع، إذ انخرطت الرواية الجزائرية في توصيف الأزمة الأمنية وتوثيقها، فظهر ما يسمى بالأدب الاستعجالي الذي انصب اهتمامه على تمثّل موضوعة الإرهاب بالجمع بين المتخيل والواقعي والتسجيلي، مثل (تيميمون 1993م) لرشيد بوجدرة و(سيدة المقام، مرايا الضرير) لواسيني الأعرج و(ذاكرة الجسد) لأحلام مستغانمي.
أما روايات الشباب فقد نزعت نحو التجريب وتجاوز الأشكال السردية القائمة والعودة إلى التراث، فضلا عن مقاربة موضوع الإرهاب الذي جسدته أعمال بشير مفتي (المراسيم والجنائز، أرخبيل الذباب، أشجار القيامة وغيرها)، بالإضافة إلى ياسمينة صالح في (بحر الصمت، ووطن من زجاج)، وفضيلة الفاروق في (تاء الخجل).

وعلى الرغم من أن بقية الأقطار المغاربية لم يمسها الإرهاب في مرحلة التسعينيات، إلا أن الرواية فيها ظلت تقارب موضوعات الواقع من خلال تقنيات سردية جديدة كالمزج بين الأسطوري والواقعي كما في خماسية الليبي ابراهيم الكوني(التبر 1990م،المجوس 1991م)، أو التجريب وتوظيف التراث مثلما هو الحال في الروايات التونسية (الدراويش يعودون إلى المنفى 1992م، القيامة الآن 1994م، شبابيك منتصف الليل 1996م)، لابراهيم الدرغوثي و(رأس الدرب 1994م، صهيل الزمان 1998م) لرضوان الكوني و (على نخب الحياة 1993م، الكرسي الهزار لآمال مختار) و(ليلة الغياب 1997م، طرشقانة 1999م) لمسعودة بوبكر.

والأمر نفسه بالنسبة للرواية المغربية ممثلة في (جرحى الحياة) لبن سالم حميش و(لعبة النسيان) لمحمد برادة.

ولم تظهر الرواية الموريتانية إلا مع مطلع الثمانينيات فقد انشغلت بقضايا الهوية وتصوير الصراع مع المستعمر والصراع الإيديولوجي بعد الاستقلال مثل روايتي أحمد ولد عبد القادر (الأسماء المتغيرة 1981م، القبر المجهول 1984م).

بعد الألفية تنوعت موضوعات الرواية المغاربية ومزجت بين التاريخي والسياسي وأعادت طرح أسئلة حول العنف وحول الكتابة والعلاقة بالآخر. فالروايات الجزائرية مثلا راحت تتناول موضوعات انهيار المجتمع وحضور الفتنة، والنقد السياسي وعدم الكفاءة والتطرف مثل (رأس المحنة، الرماد الذي غسل الماء) لعز الدين جلاوجي و(الكافية والوشام) لمحمد مفلاح.

ويمكن الإشارة إلى روايات ما بعد الربيع العربي وخاصة روايات محمد الأصفر التي صورت تمزقات الإنسان الليبي، ورصدت موضوع الهجرة بعد الحرب مثل (جمايكا، تمر وقعمول).

وعلى العموم فإن الرواية المغاربية ذات قواسم مشتركة ارتبطت بالتحولات الاجتماعية والسياسية التي شهدتها المنطقة المغاربية.

ملاحظة: للتوسع أكثر يمكن العودة إلى:

- المتون الروائية الواردة في المحاضرة.
- عبد الحميد عقار: الرواية المغاربية تحولات اللغة والخطاب,
- عبد الملك مرتاض: القصة الجزائرية المعاصرة.
- أحمد المديني: الكتابة السردية في الأدب المغربي (التكوين والرؤية).

- ابراهيم عباس: الرواية المغاربية الجدلية التاريخية والواقع المعيش: دراسة في بنية المضمون.
- حميد الحمداني: الرواية المغربية ورؤية الواقع.